أحمد شوقي

ومنفاه الأندلسي

لسنا هنا بصدد الحديث عن أمير الشعراء أحمد شوقي فنطيل وقفتنا أمام تفاصيل حياته وأغراض شعره.. وإنما نحن ـ استجابة لغرض هذا الكتاب ـ سوف نقف طويلاً عند مرحلة من حياته.. تمر هكذا مر الكرام على الباحثين.. ربما لأن شوقياً بكل ما حظي به من مكانة اجتماعية وأدبية.. قد بسطت حياته ظلالاً مختلفة على تلك الفترة.. وكأنها جانب من جوانب عبقريته وجائزة منحته إياها السلطة الحاكمة حين خيرته فى منفاه فاختار أسبانيا (الأندلس) بلد ابن زيدون.

ونحن نعرف أن أحمد شوقي ولد فى حي الحنفي بالقاهرة فى 16 أكتوبر عام 1870 والتحق بكتاب الشيخ صالح وعنده 4 سنوات ثم دخل مدرسة المبتديان فى السنة السادسة من عمره.. ثم المدرسة الخديوية.. ثم مدرسة الحقوق ـ قسم الترجمة.

وظهرت موهبته الشعرية وهو لا يزال صغيراً فى المدارس ثم بدأ ينشر قصائده فى الصحف والمجلات.

وينشأ شوقي نشأة أرستقراطية (فى باب إسماعيل) إذ عاش فى القصر وتربي فى أحضانه.. فنشأ بعيداً عن الشعب وعن آماله وآلامه.. ولكن الأحداث سرعان ما بدلته.. حتى صار شاعر مصر الوطني الأكبر.

وقد أرسله الخديوي عام 1887 إلى فرنسا لدراسة الحقوق والآداب ويعود عام 1893 بعد أن نهل من مناهل الغرب علماً وفناً ومعرفة.. يعود

إلى مكانه فى القصر.

ولكن العرش لم يلبث أن اهتز تحت قدمي الخديوي عباس فسقط مخلوعاً (19 سبتمبر 1914) وغادر مصر إلى غير رجعة.

واعتلي عرش مصر السلطان حسين كامل بمساعدة الإنجليز.. وأسرعت الأحداث وأعلنت الأحكام العرفية.. وفرضت الرقابة على ما ينشر فى الصحف.. وقبضت سلطات الاحتلال على جميع أعضاء الحزب الوطني.. فشردت منهم وسجنت ونفت كما شاءت.. وتوالت الاغتيالات السياسية.

وفى ذلك الصيف الحار كان شوقي فى الآستانة وقد رغب البقاء إلى جانب الخديوي عباس الذى كان طريح الفراش هناك ولكن الخديوي ألح عليه فى العودة.. فعاد شوقي ليجد الأمور تتبدل.. والناس تنصرف عنه خشية مراقبة السلطات.. ووجد اللغط يكثر حوله.. ولم تكن العلاقة بينه وبين السلطان حسين كامل على ما يرام.. لأنه سبق وأن عرَّض به فى قصيدته التى قالها فى (كرومر).. فقد كان حسين كامل رئيساً لحفل الوداع الذى أقيم لكرومر وسمع بأذنيه غطرسة كرومر وهجومه ولم يرد عليه.. فقال شوقي:

أيامكم أم عهد إسماعيلا

أم أنت فرعون يسوس النيلا

أم حاكم فى أرض مصر بأمره

لا سائلاً أبدا ولا مسئولا

يـا مـالكاً رقَّ الرقـاب ببأسـه
هـلا اتخـذت إلى القلـوب سـبيلا
شـهد (الحسين) عليـه لعـن أصـوله
ويـصـدّر الأعمـى بـه تطفـيلا
جـبنٌ أقـلَّ وحـطَّ مـن قـدريهما
والمـرءُ إن يجـبن يعـش مـرذولا
أحـسبت أن الله دونـك قـدرةً
لا يمـلك التغـير والتبـديلا
الله يحكـم فى الملـوك ولم تكـن
دول تنازعـه القـوى لتـدولا

واستدعى شوقي للتحقيق.. ولم يدم التحقيق طويلاً.. وأفرج عنه.. لكن سلطات الاحتلال كانت تخشي وجوده فى مصر فخيروه البلد التى يجب أن يذهب (ينفي) إليها.. فاختار شوقي أسبانيا ـ أندلس العرب ـ.

ويغادر شوقي مصر فى الخامس من أغسطس عام 1915 ومعه أسرته وكتبه.. وها هو يجلس وحده فى ركن بعيد من السفينة ويكتب: (إن للنفي لروعة.. وإن للنأى للوعة.. وقد جرت أحكام القضاء بأن نعبر هذا الماء.. حين الشر مضطرم.. واليأس محتدم.. والعدو منتقم.. والخصم محتكم.. وحين الشامت جذلان مبتسم.. يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم.. نفانا حكام عُجْم.. أعوان العدوان والظلم.. خلفناهم يفرحون بذهب اللجْم..

obeikandi.com

ويمرحون فى أرسان يسمونها الحكم.. ضربونا بسيف لم يطبعوه.. ولم يملكوا أن يرمقوه أو يضعوه.. فما ذنب السيف إذا لم يستح الجلاد).

وهى قطعة فنية أوردها شوقي فى (أسواق الذهب) وأودعها صدق مشاعره.. ومكنون همومه.

وكانت تجربة المنفى ثرية برغم ما فيها من الحرمان والأحزان.. فقد كان فراقه عن الوطن يمثل له العذاب نفسه.. ولهذا وجدناه يصور هذه الحالة المشحونة بالهموم بقوله:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا

نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

ماذا تقصّ علينا غير أن يدا

قصت جناحك جالت فى حواشينا

يا من نعز عليهم من ضمائرنا

ومن مصون هواهم فى تناجينا

ناب الحنين إليكم فى خواطرنا

عن الدلال عليكم فى أمانينا

وفى موقع آخر يرسل شوقي إلى صديقه حافظ إبراهيم بهذه الأبيات:

يا ساكنى مصر إنا لا نزال على

عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا

هــلا بعثــتم لنــا مــن مــاء نهــركم

شــيئا نبــلّ بــه أحــشاء صــادينا

كــل المناهــل بعــد النيــل آســنة

مــا أبعــد النيــل إلا عــن أمانينــا

فيرسل إليه حافظ إبراهيم برده الجميل:

عــجبت للنيــل يــدرى أن بلبلــه

صــاد ويــسقى ربــى مــصــر ويــسقينا

والله مــا طــاب للأصــحاب مــورده

ولا ارتضوا بعدكم مــن عيــشهم لينــا

لــم تنــأ عــنه وإن فارقــت شــاطئه

وقــد نــأينا وإن كــنا مقيمينــا

ولم يكتف شوقي بذلك بل أرسل إلى صديقه الشاعر إسماعيل صبري يقول:

يا سارى البرق يرمى عــن جوانحنــا

بعــد الهــدوء ويهمــى عــن مــآقينا

ترقرق المــاء فــى عــين الــسماء ومــا

غاص الأسى فخضبنا الأرض باكينــا

فأجابه إسماعيل صبري:

يا وامض البرق كم نبهت من شـجنٍ

فى أضـلع ذَهَلَـتْ عـن دائهـا حينـا

فالمـاء فـى مقـلٍ والنـار فـى مهـجٍ

قـد حـار بيـنهما أمـر المحبينـا

لـولا تذكـر أيـام لنـا سـلفتْ

ما بـات يبكـى دمـاً فى الحي باكينـا

يـا آل ودّىَ عـودوا لاعـدمتكمُ

وشاهدوا ويحكـم فعـل النـوى فينـا

ولم يهدأ شوقي فى منفاه بل كان صوته نايا حزيناً يبث الحنـين والـشجن والإحساس بالغربة.. وأنات الشوق الحارة.

ويذكر شوقي فى ديوانه أنه طاف بطليطلـة وأشـبيلية وقرطبـة فيتـذكر سينية البحتري الشهيرة التى يقول فى مطلعها:

صـنت نفـسي عـما يـدنس نفـسي

وترفعـت عـن نـدى كـل جـبسِ

فإذا به يعارض هذه القصيدة بسينية أخرى يقول فيها:

اخـتلاف النهـار والليـل يُنْـسى

اذكـرا لـى الـصبا وأيـام أنـسى

وصـــفا لـــى مـــلاوةً مـــن شـــبابٍ

صُـــوَّرت مـــن تـــصورات ومـــسّيِ

وسلا مـصر هـل سـلا القلـب عنهـا

أو أســا جُرحَــه الزمــان المؤسّــى

مـــستطار إذا البواخـــرُ رنّـــت

أول الليـل.. أو عـوت بعـد جـرسِ

يـا ابنـة اليـم مـا أبـوك بخيـلٌ

مـا لـــه مـــولعاً بمنـع وحـبْسِ

أحـــرام عـــلى بـــلابله الـــدو

حُ حـــلالٌ للطـير مـن كـل جـنسِ

نَفَـسى مِـــرجلٌ وقـــلبى شـــراعٌ

بهـــما فى الـــدموع سِـــيرى وأرسي

واجعـلى وجـــهك (الفنـار) ومجـرا

ك يد (الثغر) بـين (رمـل) و(مكـسِ)

وطنـى لـــو شـــغلت بالخلـــد عنـه

نـازعتني إليـه فـــى الخلـــد نفـسى

شـــهد الله لـــم يغـب عـن جفـونى

شخـــصُه ســـاعةً ولم يخـل حِـــسّى

وهو فى طوافة يذكر تاريخ العرب فى الأندلس وحضارتهم العظيمة التى انطلقت منها إلى أوروبا..

ويقـف فى قرطبـة بالمـسجد الكبـير.. ويـرى الحمـراء.. وعـزة العـرب القديمة.. فلا يترك شيئا إلا ويصفه ويعبر عنه ويمزج ذلـك كلـه بأشـجانه الخاصة.

ويتذكر عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) وهو شاعر مثله.. فيقـول فى قالب الموشحة:

مـن لنضـــو يتنـزى ألـــما   بـرَّح الشـوقُ به فى الغلـسِ

حـن للـبان وناجـى العلـما   أين شرق الأرض من أندلسِ

*****

قلـت لليل .. ولليـل عَـــوَادْ   مَنْ أخو البث فقال: ابن فِراقْ

قلت: ما واديه قال الشجو واد   ليس فيه من حجاز أو عـراقْ

قلـت: لكـن جفنهُ غيرُ جـواد   قال : شر الدمع ما ليـس يُراقْ

نغبطُ الطـــير ومـا نعلـــم ما   هـى فيه مـن عـــذاب بئـسِ

فـدع الطـير وحـــظا قُسِـــما   صـيَّر الأيْـك كـدورِ الأنَـسِ

وحدث فى عام 1918 فى أثناء نفيه.. أن وافاه البرق بنعي والدته.. فـأثر ذلك المصاب فى نفسه تأثيرا بليغا.. ولم تمض على هذا الخبر ساعة حتى كتب يبكيها:

إلى الله أشكو من عوادى النوى سـهما

أصاب سـويداء الفـؤاد ومـا أصـمى

تــوارد والناعـــى فأوجـــست رنــةً

كلاما عـلى سـمعى وفى كبـدى كلْـما

فـلما هتفـا حتـى نـزا الجنـبُ وانـزوى

فيا ويح جنبى كم يسيل وكـم يـدمى

وبعد أربع سنوات وبعض السنة عاد شوقي إلى مصر.. ولـذلك قـصة طريفة.. يحكيها د. ماهر حسن فهمي فى كتابه (أحمد شوقي) عن مجلة أبولو (ديسمبر 1932):

كان من عادة السلطان حسين كامل أن يدعو من حين إلى حـين بعـض الشخصيات لتناول الغداء بقصر عابدين.. وفى أواخر سبتمبر عـام 1919 كان من بين المدعوين أحمد زكى باشاً ـ وهو صـديق حميم لأحمـد شـوقي ـ وبعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام.. دعـاهم إلى تنـاول القهـوة بـالبهو الكبير.. وجلس السلطان وإلى جواره أحمد زكى باشاً ومحمود شكري باشاً ودار الحديث فى هذه الجلسة عن النهضة العلمية والتطور فى الحركة الأدبية وفى الصحافة والأغاني القوميـة.. وتطـرق الحـديث إلى الـشاعر إسـماعيل صبري ومستواه الفني الرفيع الذى جعلـه شـيخ الـشعراء.. وهنـا التفـت السلطان إلى أحمد زكى باشاً وسأله:

ـ كيف تترجمون فى العربية كلمة Mentalite .

obeikandl.com

قال أحمد زكى باشاً: هذه الصيغة استحدثت لمعنى خاص يقاربه فى العربية قولنا (ذهنية) أو (عقلية).

ـ أيوجد بين العرب الآن من فى قدرته أن يماشى شعراء الإفرنج.. مع هذه العقلية الجديدة والذهنية؟

أجاب: إن هذه الميزة تفرقت فى كثير من شعراء العصر ولكنها اجتمعت كلها فى شاعر واحد.

قال السلطان: ومن يكون؟

قال: إنه أحمد شوقي.

وهنا أشار محمود شكري باشاً له.. فأحس أنه يشجعه على المضي فى الحديث فاسترسل أحمد زكى قائلا:

ـ إن شوقي ممن تزدان بهم الدول ولو كان فى زمن الخلفاء لتخطفته دمشق وبغداد وقرطبة.. لقد أفاض على العروبة من نفثاته ومنح الشعر والأدب من نفحاته.. حسنات باقية.. وآثاراً خالدة.. أيصح بعد هذا أن تبقى مصر محرومة من بلبلها الغريد.. وأن يرفرف هذا الطائر بجناحه على قرطبة وطليطلة وأشبيلية وغرناطة.. بعد أن خرجت منها العروبة خروج الأرواح من الأبدان؟.. إن الذى نرمقه هو أن نعيد إلى القاهرة رونقها المجتمع فى أثواب شوقي.

ووقف السلطان فوقف الحاضرون وانصرفوا.. وأسرع محمود شكري يعاتب أحمد زكى على اندفاعه فى الحديث فاعتذر أحمد زكى بأن السلطان كان مصغيا إليه.

وبالفعل اقتنع السلطان وطلب من رئيس الوزراء أن يعمل على عودة شوقي من المنفى..

ويصل شوقي إلى القاهرة ولسان حاله يقول:

ويــا وطنــى لقيتــك بعــد يــأسٍ

كــأنى قــد لقيــتُ بــك الــشبابا

ولــو أنــى دعيــتُ لكنــت دينــى

عليــه أقــابل الحــتم المجابــا

أديــر إليــك قبــل المــوت وجهــى

إذا فهــتُ الــشهادة والمــتابا

وتستقبله الجماهير وفى مقدمتهم حافظ إبراهيم على محطة القطار.. ويحيه حافظ قائلا:

الحمد لله الذى قــد رده من بعد غربته إلى أوطــانهِ

فتنظروا آياته وتسـمّعوا قد قام بلبلكم على أغصانه

وخرجت الصحف ترحب به وتلقبه بألقابه: سيد الأدباء ـ أمير الشعراء.

يعود أحمد شوقي بعد أن قضى سنوات المنفى ليحتضن وطنه مرة أخرى.. ويعود إليه شبابه وفتوته وإبداعه الجميل.. عاد شوقي ليس جبانا متخاذلا يرهب بطش الحديد والنار.. وإنما كان ثائرا حرا كريما فشارك فى الثورة مشاركة فعالة.. وكان مثلا للشاعر الوطنى الذى يدعو إلى الحرية والعدالة.